أصول أقدم الحضارات الزراعية في شمال شرقي سورية وتطورها

رؤوف منشايف ـ نيقولاي ميربرت

تعريب: هالة مصطفى

خلاصة:

في عام ١٩٩١ ـ ١٩٩٣ كشفت بعثة الأكاديمية الروسية للعلوم النقاب عن أخاديد طبقات الصخور في مستوطنة تل خزنة II المتعددة السويات. يقع تل خزنة II على بعد ٢٥ كم شمال شرق الحسكة. يبلغ ارتفاعه ٩أمتار ويتراوح قطره من ١٠٠ إلى ١٥٠م، وتبلغ سماكة الطبقة السفلى ٣,٥ متر، وهي مكونة من مواد متجانسة تنتمي لحضارة تل سوتو وترتبط تاريخياً بأواخر عصر حسونة القديم. إلى الأعلى منها يوجد طبقات حلف وحضارات السلالة الأولى وعصر الوركاء (أوروك) المتأخر. لمواد الطبقة المنخفضة أهمية خاصة وربطها بالطبقة المشابهة لها من تل كشكشوك II (تنقيب البعثة اليابانية) يسمح بتوسيع رقعة المنطقة التي سادت فيها أقدم الحضارات الزراعية في شمال بلاد الرافدين حتى شملت شمال شرقي سورية.

البحث:

بدأت بعثة التنقيب التابعة للأكاديمية الروسية للعلوم عملها عام ١٩٦٩ على نطاق واسع في شمال بلاد الرافدين. وقد اقتصرت التنقيبات حتى عام ١٩٨٥ على سهل سنجار غربي العراق، وأسفرت عن كشف مجموعة مهمة جداً من المواقع العائدة لما قبل التاريخ في بلاد الرافدين، تمتد من عصر ماقبل الفخار في العصر الحجري الحديث حتى العصر السومري العبيدي الأول. ومنذ عام ١٩٨٨ بدأت التنقيبات في السهول المجاورة للعراق في منطقة الحسكة السورية. كان هدف البعثة التنقيب في موقعين متعددي الطبقات هما تل خزنة I وتل خزنة II، حيث يحتوي الأول على طبقات تعود للألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، وهذا ماسيكون موضوع تقريرنا الثاني. أما الآن فسنعرض وبشكل مختصر نتائج التنقيبات التي بدأت عام ١٩٩١ في تل خزنة II (ر.م.منشييف، ن.ي.ميربرت، ١٩٩٤).

في بادئ الأمر، يجب أن نؤكد أن هذا التل يحتوي على طبقة كبيرة جداً من أقدم الحضارات الزراعية في سهول بلاد الرافدين، التي سبق أن وجدتها بعثتنا لأول مرة في تل سوتو قرب تل عفار (ن. و. بادر، ١٩٩٣)، ومن قبل البعثة البريطانية أثناء تنقيبها في أم الدباجية في منطقة الحضر.

يقع تل خزنة II على بعد ٢٥كم شمال شرق الحسكة على الضفة اليمنى من وادي رجلة الذي يصب في نهر جغجغ على الرافد الأيسر لنهر الخابور. يبلغ ارتفاع التل ٩أمتار ويتراوح قطره من ١٠٠م لغاية ١٥٠م، وتبلغ سماكة الطبقة السفلى ٣,٥ متر، وهي مكونة من مواد متجانسة تنتمي لحضارة تل سوتو وترتبط تاريخياً بأواخر عصر حسونة القديم، يليها طبقة تعود لعصر لاحق ثم طبقة رقيقة

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

من حضارة حلف، وفوقها بعد الطبقة الجرداء الثانية هناك أنقاض لمقبرة كبيرة تعود إلى عصر الوركاء (أوروك) المتأخر، وأخيراً عدة طبقات تعود إلى عصر السلالات المبكرة.

أهم شيء يمكن أخذه بعين الاعتبار هو مواد الطبقة المنخفضة الوفيرة حيث نجد بداخلها عدة سويات من الأرضيات مع أنقاض جدران من الآجر، ويدل غياب الانقطاع الطبقي فيها وتجانس المواد على ديمومتها لفترة طويلة، وأهم اللقى فيها كسر الفخار. داخل الطبقة المنخفضة، هناك صف من الأشكال المميزة من الأواني المعروفة لنموذج المواد التي اكتشفت في موقع تل سوتو- أم الدباجية (ر. م. منشايف، ش. ن. اميروف، ١٩٩٤) بين هذه المواد جرار كبيرة ذات جدران سميكة غير مصقولة تستعمل لحفظ الحبوب والماء وأحواض ذات شكل بيضوي وقصعات وفناجين مختلفة منها المصقول وأغلبها ذات تزيينات ملونة بالأحمر والأسود. لابد من الاشارة إلى وجود نماذج محلية وفريدة من الفخار في الأقاليم الشرقية، مثل القصعات الرقيقة ذات السطوح السوداء أو الحمراء. ونفترض أنها نتاج تفاعل التقاليد في بلاد الرافدين مع تقاليد العصر الحجري الحديث السوري الكيليكي.

أثيرت هذه القضية عدة مرات. لكنه لم يتم اثباتها بشكل مؤكد لغياب الأدلة الأثرية المادية. لكن أهمية كبيرة لدراستها واضحة تماماً، فوضع المسألة بحد ذاته يحتم الانتقال من دراسة كل موقع على حدة إلى الدراسة الشاملة لتاريخ الشرق الأدنى القديم بكل تركيباته وتعقيداته، كما يجب الأخذ بعين الاعتبار التمازج والتفاعل بين تقاليد الحضارات وتطور المراكز المختلفة لتشكيل اقتصاد انتاج الغذاء. بالاضافة إلى مجموعة من الظواهر الحضارية المادية في المستوطنة ونماذج البناء المتنوعة حتى ظهور الفخار.

ان ابتداء التنقيب في الطبقة السفلى لتل خزنة II له أهمية أساسية وربطها بالطبقة المشابهة لها من تل كشكشوك (تنقيب البعثة اليابانية)، سمح بتوسيع رقعة المنطقة التي سادت فيها أقدم الحضارات الزراعية في شمال بلاد الرافدين حتى شمل شمال شرقي سورية. فلأول مرة، في منطقة بلاد الرافدين الأعلى يتم العثور على حلقة ربط هذه مع (حضارة تل سوتو) التي سبقت عصر حسونة في تطور الحضارات الزراعية في الشرق. تم تأريخ حلقة الربط في الربع الأخير للألف السابع ق.م حتى بداية الألف السادس ق.م وتم اثبات انتماء هذا الموقع إلى هذه الحضارة، بعد التنقيب في الطبقة السفلى لتل حسونة II واكتشاف جرار كبيرة مستعملة كقبور للأطفال، بالإضافة إلى بعض الأواني الفخارية والمرمرية وبعض العقود المؤلفة من حبات حجرية، ومثل هذه اللقى معروفة في حضارة تل سوتو.

يثبت تقريرنا هذا، وجود حضارة مشتركة تمتد من موقع الحضر في الجنوب الشرقي وحتى تل خزنة II، ومنطقة الحسكة في الشمال الغربي، وتشكل هذه المنطقة من سورية حلقة وصل بين المواقع المبكرة مثل مريبط وأبو هريرة والرماد وغيرها، التي تضم أدلة على تدجين الحيوانات وبدء الزراعة، وبين المواقع المتأخرة المعقدة مثل حضارة حلف. وأكثر من ذلك فإن التواصل المعروف للمجتمعات الزراعية الأولى في المنطقة السورية يتلائم مع الدلائل العراقية في شمالي بلاد الرافدين. إن نشوء مثل هذه المجتمعات الزراعية على امتداد هذه المنطقة الشاسعة يبرهن على تكوّن نظم للاتصالات التجارية والحضارية في مراحل موغلة في القدم، والتي لعبت فيما بعد دورها في ظاهرة طريق الحرير.